كلمات من الارض المحتلة

تل الزعتر في "كلمات عن البقاء والرحيل"

الرفيقة « ايفا ستاهل »

كان الشعر سباقا في عكس « اسطورة » تل الزعتر ... ولعل هذا من الميزات التي ينفرد بها الشعر عن باقي الاجناس الادبية والفنية .

ان قراءنا يعرفون جيدا - كما يجب ان يفترض - ان ابرز الشعراء العرب كتبوا اجود القصائد بفعل بطولة التل وتصديه لاشرس هجوم فاشي رجعي شهدته الثورة الفلسطينية ، وربما ثورات العالم .

ويذكر قراؤنا ايضا قصيدة الشاعر الفلسطيني « محمود درويش » التي عكست مشاعر المقاتل الفلسطيني - اللبناني ، والمواطن الفلسطيني - اللبناني (هذا المواطن كان ايضا مقاتلا في مواقعه المختلفة) ، اعني طبعا قصيدة « احمد الزعتر » .

ويذكر قراؤنا ايضا قصيدة الشاعر السوري « ممدوح عدوان » التي عكست المشاعر الحقيقية لدى شعبنا السوري اثناء سقوط التل ، انها قصيدة « هكذا تكلم التل » .

ويذكرون ايضا قصيدة الشاعر العراقي « سعدي يوسف » التي صورت بدقة اثر مهرجان التل الدموي في الشارع العراقي .

ويذكرون قصائد كثيرة اخرى ، كانت كالزهور الباكية على ضريح التل الشهيد !

ولكن في ما يلي سنعرض بعض تأثير « تل الزعتر » على الشعر في الارض المحتلة ، من خلال تناولنا لديوان الشاعر الفلسطيني الشاب في ارضنا المحتلة « اسعد الاسعد » .

* * *

صدر ديوان الشاعر « اسعد الاسعد » عن منشورات شروق - القدس ، كانون الثاني ١٩٧٧ ، متضمنا اربع عشرة قصيدة كتبت بين القدس ورام الله الفلسطينيتين ، وحلب السورية في عامي ١٩٧٠ - ١٩٧٦ . وهذا الديوان هو الثاني بعد ديوان الشاعر الاول « الميلاد في الغربة » الذي صدر عن منشورات صلاح الدين - القدس ١٩٧٥ .

وقد اهدى الشاعر ديوانه الثاني الذي رسم غلافه وخطوطه الفنان الفلسطيني « كريم دباح » ، اهداه « الى كل الشموع التي اطفأها التتار ، عهدا ونبراسا يضيء لنا الطريق الى مرافىء الشمس؟ » .

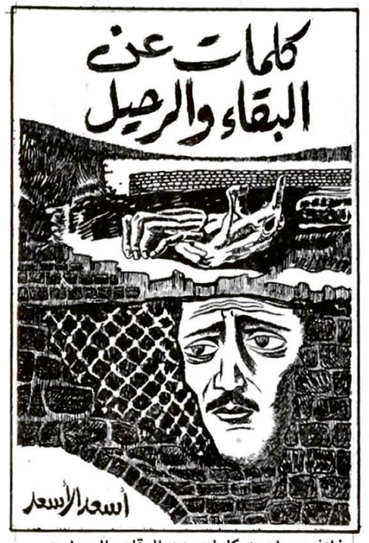

غلاف ديوان « كلمات عن البقاء والرحيل »

يبتدىء الديوان بمقدمة ملفتة للانتباه كتبها الشاعر نفسه . والمقدمة حول الرفيقة « ايفا ستاهل » « الممرضة السويدية - ايفا - التي كانت قد تزوجت من فلسطيني كان يقوم بواجبه في تل الزعتر ... استشهد زوجها ، وظلت هي في تل الزعتر تقوم باسعاف الجرحى وتقديم ما تستطيع من خدمات ومساعدة الى ان اجهضت وقطعت ساقها بفعل القصف الفاشي على المخيم » .

وقد قسم الشاعر مقدمته الى ثلاثة اقسام ، الاول : « الاسطورة - الزمن البعيد جدا » ، وفي هذا القسم تحدث الشاعر عن اسطورة سويدية تقول ان رعاة ثلاثة اغتصبوا فتاة ابوها مزارع غني ، عند خروجها مع وصيفتها لقطف الكرز من غابة قريبة تحضيرا للاحتفال في عيد ميلادها . وتقول الاسطورة ان المكان الذي اغتصبت فيه الفتاة الغنية تحول نبع ماء سمي - نبع العذارى - .

بالصدفة دخل الرعاة مغتصبو الفتاة ، قلعة والدها فذبحهم جميعا انتقاما لابنته .

اما القسم الثاني من المقدمة فعنوانه : « الحقيقة - الزمن الحاضر - » وقد قال فيه بعد تعريفه بالرفيقة « ايفا » : « وأوردت وكالات الانباء ان اطفال تل الزعتر اليتامى صاروا يعرفون بالارقام (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ... وان هؤلاء الاطفال كانوا يفتشون عن الماء الذي عز في ذلك الوقت بفعل القصف الكتائبي الذي دمر كل شيء حتى انابيب المياه ولم تبق سوى انبوبة واحدة تبعد مئة متر ، وكان الصامدون - وخصوصا الاطفال - يطلبون الماء فيقتلون ، وقد دعتهم الصحافة الاجنبية - شهداء الماء - وتشاء الصدف ان تظل - ايفا - على قيد الحياة وتخرج مع القوافل القليلة التي استطاع الصليب الاحمر ان ينقذهم ، وترجع الى وطنها السويد تستصرخ ضمير شعبها ، وضمير العالم ، وتحكي عن مجازر الفاشيين الجدد . » .

اما القسم الثالث والاخير من مقدمة الديوان فعنوانه « المستقبل - القريب جدا - » ، فهو اسقاط للاسطورة السويدية على الاسطورة الفلسطينية - السويدية الحقيقية ، حيث يقول الشاعر : « تل الزعتر وقد تحول المكان - شهداء الماء - الى نبع ماء يستمد مياهه من الدماء المقدسة التي سالت على جنبات تل الزعتر ، ترجع الفلسطينيات لزيارة شهدائهن واطفالهن فيرين الزعتر بقي اخضرا ، ويظل هكذا على مر الفصول . ترجع الفلسطينيات حاملات جرار الماء من النبع المقدس عند تل الزعتر ليسقين الاطفال « اخوة شهداء الماء » حتى تشتد سواعدهم ويدركوا ، ان المسافة ما بين تل الزعتر وحقول الزيتون ... تقترب كثيرا ... وحينها يدرك الاطفال ان البسمة اصبحت على بعد خطوات منهم ، ولا بد انهم مدركوها ... » .

ان المقدمة جيدة ، ولكنها تحتاج الى اعادة ترتيب طبقي للاسطورة السويدية لتتوافق مع الاسطورة الفلسطينية - السويدية . فالرعاة - الفقراء في تل الزعتر هم وصيفة « ايفا » و « الاغنياء » هم المغتصبون الذين يجب الانتقام منهم .

نتصفح ديوان « الاسعد » حتى نصل الى ص ٨٩ ، لنقرأ عنوان القصيدة المكتوبة في القدس ، آب ١٩٧٦ ، انها قصيدة « تل الزعتر الى الابد » .

يقول الشاعر : « نكون ... او لا نكون ، آه يا رفاق حين يصبح الاطفال عندنا رجال / ونبدأ الحياة / من عين طفل كان لا يعرف الدمى ، يجيد حشو بندقية ، بناء متراس . آه حين يفهم الصغار ان درس اليوم كل يوم / الليل مهما طال سوف يأتيه النهار » ص ٩٦ - ٩٧ .

ويضيف الشاعر الذي يحدثنا عن اطفال تل الزعتر ، مدرسة المستقبل الفلسطيني : « قالت صديقتي : ما ابعد الطريق عن باب العمود !! / لكن طفلا كان / متمترسا على اعقاب التل قال : كلها طريق / ومن هنا ، من خلف متراسي بداية الطريق » ص ٩٩ - ١٠٠ .

ان النضال ضد الفاشية والرجعية العربية بداية الطريق الى فلسطين . ويضيف الشاعر : « يبيعن وجه الليل في وجه الرفاق / ويصير عمق الجرح اسطوره / يتحول الالم المقدس / في لحظة ممزوجة بالاحمر القاني / على شرفات بيروت التي استرخت على الشطآن / يتمحور الالم المقدس في القلوب التي ظمأت / لعل الصبح يأتيها بأخبار عن الاهل / كانت رياح الليل مغبرة / والريح تحمل الليل ، عبر خرائب الاعداء / مدت الى الغرب الليل ، عبر خرائب الاعداء / مدت الى الغرب الخطى / وصلته في عز النهار / آه يا تل الرجال / يمتد خطونا ، وعميق جرحنا / يعلمنا ، مواصلة النضال . » .

ولكن ... من هي « انتصار » ، انها طفلة من تل الزعتر ، ترمز الى انتصار التل رغم استشهاده: « في ذاك المساء / حط الجراد على زرع لنا / لم يبق غير جفاف الحلق في اعناقنا / سيان كان الليل والنهار / يتعلق الاطفال / في حدقاتهم كانت مفاهيم الكبار / في قصة عن طفلة كانت تدور على الرجال / تأتي محملة بالخبز / بالماء / بالحب ... بالاخبار / كانت تسمى انتصار / كل الرفاق بالتل كانوا يعرفونها / فاذا أطلت من خلف متراس صنعته من اعواد عريشة او من خرائب دار / استبشروا خيرا / ذات يوم / حط الجراد بكثرة ، بحث الرجال عن انتصار / ثقيل الظل كان الليل في ذاك المساء / جاء الجراد على سياج الدار من كل اتجاه / وتكاثر الجرذان في الساحات » . ص ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ .

لقد تكاثر الجرذان وما زالوا يتكاثرون و « ينتحر الحب على الطرقات / وتبقى في الساحات / « كرابيج حلب » - من قصيدة الشاعر « كلمات عن البقاء » ص ١١٨ - ١١٩ .

* * *

لقد استطاع الشاعر ان يتصور بعد التفاصيل عن « التل » ، وقد حدد بشكل مباشر في مقاطع تم نستشهد بها هنا اعداء « تل الزعتر » وسافكي دمه .

والشاعر « اسعد الاسعد » موهوب لا شك ، ولكنه لا يزال في طور التكون . يتضح ذلك من خلال الخطابية الواضحة في قصائده ، ومن خلال المباشرة التي لم ترتقي للمستوى الفني المطلوب في بعض القصائد .

ولكن من حيث المضمون فقد عبر الشاعر صادقا عن احاسيس جماهيرنا المناضلة في الارض المحتلة فالفضية وجوانبها المختلفة الفلسطينية والعربية والاممية ... كانت محور محتوى قصائد شاعرنا .

هذا طبعا لا يجعلنا نغفل عن التنبيه الى ان الشاعر يخطىء نحويا ، ويكسر التفعيلة كثيرا ، رغم انه يتمتع باستطراد لا بأس به ، واحيانا « يدور » بعض المقاطع باتقان .

اما الصور على قلتها ، فهي تخيلية احيانا ، ووافعية جدا احيانا اخرى . والملفت للنظر ان القصائد التي كتبها الشاعر في عام ١٩٧٥ ، افضل من قصائده المكتوبة ١٩٧٦ ... من حيث الشكل الفني واتقان الاسلوب الغنائي في القصيدة .

وتتضح ببساطة استفادة الشاعر من التراث الشعري للقصيدة الفلسطينية الحديثة ، وذلك من خلال تأثره باشعار محمود درويش الاولى وتوفيق زياد وسميح القاسم .

وقد استشهد الشاعر في قصيدته « ماذا تقول الريح » حزيران ١٩٧٦ ، ببيتين من قصيدة للشاعر توفيق زياد :

« يقول صاحبي -
ماذا تقول الريح
يا شباكي المفتوح
عن وطني الذي
تركته مفتح الجروح (١) »

ويضيف الشاعر في هامش القصيدة :

« (١) من قصيدة للشاعر توفيق زياد بعنوان « شباكي وانا » في ديوانه « سجناء الحرية » ، والقصيدة جميلة الى درجة الالتحام بالمشاعر الصادقة والحقيقية للانسان الفلسطيني في غربته » .

ان الشاعر الشاب اسعد الاسعد ، شاعر واعد ، لا بد ان يكون وريثا شرعيا للجيل الشعري الذي يمثله درويش وزياد القاسم .

لقد كان عرضنا لديوان « كلمات عن البقاء والرحيل » محاطا بذكرى تل الزعتر ومرتبطا بها ، لذا القينا الضوء على جانب واحد هو تأثير استشهاد التل وبطولاته على احاسيس شاعر شاب في الداخل ... بعد ان كنا استعرضنا « ديوان سميرة الشرباتي » الذي يمثل جانبا سلبيا في شعرنا الجديد في الارض المحتلة . اننا نأمل ان تصلنا افضل النماذج التي تمثل حقيقة الوضع الشعري والادبي في الارض المحتلة ، لان الصدفة كانت وراء وصول الديوانين الى ايدينا ... وصدفة كان الديوانان لشاعرين من جيل واحد ... وصدفة ابتدأ عنوانا الديوانين بمفردة « كلمات » !! .

هـ د

تل الزعتر في خريف البنادق !

شعر هادي دانيال

- ١ -

عوق ماء الخيانة
هرت غصونا ،
تفسخ فولاذها صدأ ،
وتعفن فيها الرصاص ..
من يحرك عاصفة
الارجوان
لتكنس هذي الرمال ،
ويساقط الثلج ؟ .

- ٢ -

قبل ان يكتمل
الاطفال في رحم
البنادق ..
ملأوا فرج فلسطين
رمادا ،
ورموها في الخنادق ...

- ٣ -

قبل ان تنضج
في الرحم الأجنة ..
اطفأوا النار بسجاد
وماء عكر ،
وببطن المهرة الحامل
قد غلوا الأسنّة ..

- ٤ -

بعد ان حرك
دباباته فوق عظام
الفقراء ..
أمر الخوذات ان
تخنق آفاق الجياع ..
وببسطار فظيع
سحق البرعم في
أرض الدماء ..
بعد أن راكم
فوق العشب رملا
وحديدا ..
أرسل الوحش الصقيعي
نبالا ترصد الجمر
الذي يومض في
ليل المخيم ..
انما الزعتر يحلم .. ،
انما الزعتر يحلم ..